

# كتاب "حضارة الإسلام" .. تشرح لروح الحضارة بعيون غربية

يُعد كتاب "حضارة الإسلام" (Medieval Islam) للمستشرق النمساوي-الأمريكي جوستاف فون جرونباوم، بترجمته العربية الرصينة التي قدمها عبد العزيز توفيق جاويد، عملاً تأسيسياً ومحورياً في حقل الدراسات الإسلامية في الغرب. على الرغم من مرور عقود على صدوره الأول، لا يزال الكتاب يحتفظ بأهميته كنموذج فذ للمنهجية الاستشراقية الكلاسيكية في أوج نضجها، بما لها وما عليها.

إن هذا العمل ليس مجرد سرد تاريخي للأحداث، بل هو محاولة طموحة للغوص في أعماق "الحالة النفسية" و"البنية العقلية" لمسلم العصور الوسطى، وسبر أغوار نظرتهم إلى ذاته وإلى العالم من حوله. في هذا العرض المفصل، سنستكشف أطروحات جرونباوم الجوهرية، ونحلل منهجيته الفريدة، ونضع عمله في سياقه الفكري، مع استعراض لأهم الانتقادات التي وُجّهت إليه، لنقدم قراءة شاملة لهذا الأثر الفكري المركب والمثير للجدل.

ويعد كتاب "حضارة الإسلام" من بين الأعمال التي سعت لفهم هذه الحضارة العظيمة وتحليل مكوناتها، من خلال سلسلة محاضرات أُلقيت في جامعة شيكاغو عام 1945، وهو بذلك من أهم الدراسات الغربية المتخصصة في فهم الحضارة الإسلامية من منظور ثقافي وفكري واجتماعي.

## حضارة الإسلام من خلال مرآة الآخر

في زمن تتقاطع فيه الرؤى حول الإسلام وتاريخه، يبرز كتاب "حضارة الإسلام" كواحد من أكثر الأعمال الاستشراقية إثارة للجدل والتحليل. هذا العمل لا يقدم مجرد دراسة أكاديمية بل يمثل محاولة لفهم "روح" الحضارة الإسلامية من الداخل، عبر عدسة فكر غربي كلاسيكي عميق ومؤثر.

لقد حاول جرونباوم تجاوز السرد التاريخي المعتاد، مستعيناً بمنهج تحليلي يجمع بين الفلسفة، والأنثروبولوجيا، واللغويات، ليكشف عن "العقلية الإسلامية" في العصور الوسطى، مستعرضاً كيف تداخل الدين، والهوية، والثقافة، لتشكيل عالم فكري وإنساني متكامل. إلا أن هذا السعي للفهم جاء محاطاً بانتقادات حادة، تتراوح بين الاتهام بالجوهريّة إلى إسقاط المقاييس الغربية على حضارة تختلف عنها جذرياً.

هذه نبذة بسيطة لشرح مضمون هذا الكتاب الهام، وهي عبارة عن محاولة لاستكشاف كتاب "حضارة الإسلام" عبر عدسة ناقدة، وموازنة بين الرؤية الغربية والتحليل الذاتي لفهم أعمق لحضارتنا. لذلك من الضروري قراءة هذا الكتاب بمنهجية نقدية، لا تمثل فقط نافذة لفهم كيف نُظر إلى الإسلام من منظور خارجي، بل فرصة لبناء خطاب أكثر وعياً وأصاله عن الذات الحضارية. وقبل الشروع في عرض كتاب "حضارة الإسلام" هذه نبذة أيضاً عن المؤلف والمترجم.

## نبذة عن المؤلف والمترجم

**جوستاف إدموند فون جرونيباوم** (1909-1972): مستشرق ومؤرخ نمساوي المولد، أمريكي الجنسية، ويُعتبر من أبرز وجوه الجيل الثاني من المستشرقين الأكاديميين في القرن العشرين. وُلد في فيينا وتلقى تعليمه فيها، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1938 هرباً من النازية. درّس في جامعة شيكاغو ثم انتقل إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) حيث أسس "مركز دراسات الشرق الأدنى" الذي يحمل اسمه اليوم (G.E. von Grunebaum Center for Near Eastern Studies). تميزت أعماله بالعمق الفلسفي، والتركيز على البنى الثقافية والنفسية للحضارات، والقدرة على المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) والبيزنطية.



الكاتب جوستاف إدموند فون جرونيباوم

المترجم عبد العزيز توفيق جاويد

**عبد العزيز توفيق جاويد** (1905-1982): كاتب ومترجم مصري كبير، يُعد من رواد الترجمة الدقيقة والأنيقة في العالم العربي. تخرج من دار العلوم وعمل في حقل التعليم والصحافة. تميزت ترجماته باللغة العربية الرصينة والقدرة على نقل الأفكار المعقدة بوضوح وأمانة. ترجمته لكتاب "حضارة الإسلام" ليست مجرد نقل للكلمات، بل هي إعادة صياغة فكرية حافظت على روح النص الأصلي وعمقه، مما جعلها مرجعاً بحد ذاتها.

## المنهج والغاية: محاولة لفهم "روح" الحضارة الإسلامية



ينطلق جرونيباوم من فرضية أساسية مفادها أن فهم أي حضارة لا يكتمل بمجرد تتبع أحداثها السياسية وإنجازاتها المادية، بل يتطلب النفاذ إلى "روحها" (Ethos). هذه الروح، بالنسبة له، هي مجموعة القيم والمعتقدات والاتجاهات العقلية والعاطفية التي تشكل نظرة الإنسان إلى الكون وموقعه فيه. لذلك، فإن كتابه ليس تاريخاً للإسلام، بل هو "تحليل ثقافي" (Cultural Analysis) للإسلام في حقبة الكلاسيكية، أو ما يسميها "العصور الوسطى الإسلامية".

الهدف الذي يسعى إليه، كما يصرح في مقدمته، هو "أن يصور رأي مسلم العصور الوسطى في نفسه وفي عالمه". هذه المهمة تتطلب تجاوز السرد التقليدي والانتقال إلى مستوى التحليل البنيوي. يستخدم جرونيباوم منهجاً متعدد التخصصات، يمزج فيه بين التاريخ، وفقه اللغة (الفيلولوجيا)، والأثروبولوجيا الثقافية، وعلم النفس. إنه يقرأ النصوص الدينية والأدبية والفلسفية ليس فقط كمصادر للمعلومات، بل كـ"نوافذ" تطل على الحالة الذهنية والنفسية لكاتبها وقرائها. يسأل: ما الذي كان يشغل بالهم؟ كيف كانوا يفكرون في الله، والزمن، والمجتمع، والذات؟ ما الذي كان يفرحهم أو يحزنهم؟

هذا المنهج، الذي كان ثورياً في وقته، يهدف إلى رسم صورة بانورامية للنسيج الفكري الذي شكل عالم المسلم، وتحديد عناصره المكونة:

- **العناصر الموروثة:** الإرث العربي الجاهلي (الشعر، القيم القبلية).

- **العناصر المنقولة:** التأثيرات الهائلة للحضارات السابقة التي ورثها الإسلام، خاصة الهلنستية (الفلسفة والعلوم)، والفارسية (نظم الحكم والإدارة والآداب)، والهندية.

- **العناصر الأصيلة المبتكرة:** ويضع في قلبها الوحي القرآني والرسالة المحمدية، التي يعتبرها القوة المركزية التي صهرت كل هذه العناصر وأعادت تشكيلها في مركب حضاري جديد ومتفرد.

## الإسلام كقوة موجهة: الدين هو القالب والمحتوى

الأطروحة المحورية في كتاب "حضارة الإسلام" هي أن الدين الإسلامي لم يكن مجرد جانب من جوانب الحياة، بل كان هو الإطار الشامل الذي يحدد كل شيء. يرى جرونيباوم أن الحضارة الإسلامية هي "حضارة دينية" بامتياز، بمعنى أن كل تعبيراتها، من السياسة إلى الفن، ومن العلم إلى الشعر، كانت مشروطة بعلاقتها بالوحي الإلهي.



يحلل جرونيباوم كيف أن مفهوم "التوحيد" لم يكن مجرد عقيدة لاهوتية، بل كان مبدأً تنظيمياً للحياة بأكملها. فالله هو الخالق الأوحد، والحاكم المطلق، ومصدر كل قانون وقيمة. وبالتالي، فإن هدف الوجود الإنساني هو الخضوع لإرادته (الإسلام). هذا الخضوع، أو "الاستسلام" كما يترجمه أحياناً، هو المفتاح لفهم النفسية الإسلامية في العصور الوسطى. إنه يولد شعوراً بالاعتماد الكامل على الله، ويقلل من أهمية الإرادة الفردية الحرة بالمعنى الغربي الحديث.

هذه المركزية الدينية، في نظر جرونيباوم، أنتجت ثنائيات شكلت التوتر الداخلي للحضارة الإسلامية:

## الوحي مقابل العقل

الصراع بين النص المقدس (القرآن والسنة) الذي يمثل الحقيقة المطلقة، وبين الفلسفة العقلانية المستوردة من اليونان. انتهى هذا الصراع، كما يرى، بانتصار نهائي للاهوت الأشعري الذي أخضع العقل للوحي.

## الجماعة مقابل الفرد

يؤكد جرونيباوم على أولوية "الأمة" أو الجماعة على الفرد. فالخلاص فردي، لكن الهوية والتشريع والحياة الاجتماعية كلها محكومة بالانتماء إلى جماعة المسلمين. هذا يفسر، في رأيه، ضعف تطور مفهوم "المواطنة" أو "الحقوق الفردية" بالمعنى الحديث.

## الأصالة مقابل الاستعارة

التوتر الدائم بين الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي "الأصيل"، والانفتاح على علوم وحضارات الأمم الأخرى "المستعارة". يرى أن الحضارة الإسلامية كانت انتقائية للغاية في تعاملها مع هذا الإرث، حيث قبلت ما يخدمها (كالطب والرياضيات) ورفضت ما يتعارض مع رؤيتها للعالم (كالمسرح اليوناني والنحت).

## "حضارة الإسلام" في ميزان النقد الحديث



لا يمكن قراءة كتاب جرونيباوم اليوم دون وضعه في سياقه النقدي، خاصة في ضوء ما طرحه إدوارد سعيد في كتابه الشهير "الاستشراق" (1978). يُعتبر جرونيباوم مثلاً نموذجياً للمستشرق الكلاسيكي الذي، على الرغم من علمه الواسع واحترامه الظاهري للحضارة التي يدرسها، إلا أنه يقع في فخاخ منهجية وفكرية أصبحت اليوم موضع تساؤل كبير.

## إشكالية "الجوهريانية" (Essentialism)

النقد الأكبر الموجه لجرونيباوم هو ميله إلى "الجوهريانية"، أي اختزال حضارة شاسعة ومتنوعة وممتدة على مدى قرون في "جوهر" ثابت وأبدي هو "الإسلام". إنه يتحدث عن "مسلم العصور الوسطى" كأنه كائن واحد متجانس، يفكر ويشعر بنفس الطريقة سواء كان في قرطبة أو بغداد، في القرن الثامن أو الثالث عشر. هذا التجانس يتجاهل التنوع الهائل في الممارسات والأفكار، والاختلافات العرقية (عرب، فرس، أتراك، أمازيغ)، والمذهبية (سنة، شيعة)، والاجتماعية (نخبة، عامة، سكان مدن، أهل بوادي). وكما يشير طلال أسد، فإن تعريف "الإسلام" كجوهر ثابت يتجاهل كونه "تقليداً خطابياً" (Discursive Tradition) يتطور ويتغير باستمرار عبر التاريخ.

## التحيز للمعيار الغربي (Eurocentrism)

على الرغم من محاولته فهم الحضارة الإسلامية من الداخل، إلا أن جرونيباوم يظل محكوماً بمعايير ومفاهيم غربية. إنه يقيس الحضارة الإسلامية باستمرار بمقياس الحضارة الكلاسيكية أو الغربية الحديثة، وغالباً ما تكون النتيجة لصالح الأخيرة. على سبيل المثال، حديثه عن "فشل" الإسلام في تطوير مفهوم الفردية أو المأساة (التراجيديا) بالمعنى اليوناني، يتجاهل أن الحضارة الإسلامية ربما طورت مفاهيم بديلة خاصة بها للذات الإنسانية والفن، لا يمكن فهمها إلا بشروطها هي، لا بشروط حضارة أخرى.

## التركيز على النخبة والنصوص

يعتمد جرونيباوم بشكل شبه كامل على نصوص النخبة (الفقهاء، الفلاسفة، الأدباء). هذا يجعله يقدم صورة عن "الإسلام المعياري" أو "إسلام العلماء"، بينما يهمل إلى حد كبير "الإسلام الشعبي" وممارسات ومعتقدات الغالبية العظمى من الناس التي قد لا تنعكس بالضرورة في هذه النصوص الكبرى.

## عبقرية المقارنة وقوة التحليل

على الرغم من هذه الانتقادات المنهجية الهامة، لا يمكن إنكار القوة التحليلية الهائلة لجرونيباوم وقدرته الفذة على الربط والمقارنة. فصوله حول مفهوم الزمن، أو طبيعة الشعر العربي، أو **العلاقة بين الدين والدولة**، لا تزال حتى اليوم تقدم رؤى عميقة ومثيرة للتفكير. قدرته على وضع الظواهر الإسلامية في سياق مقارن أوسع مع الحضارات الأخرى تمنح عمله عمقاً فريداً. إنه يجبر القارئ على التفكير في الأسئلة الكبرى حول طبيعة الحضارة الإنسانية نفسها.



## كتاب “حضارة الإسلام” .. أثر باقي وقراءة ضرورية

في نهاية المطاف، يجب قراءة كتاب “حضارة الإسلام” لجوستاف فون جرونيباوم اليوم ليس كحقيقة نهائية عن التاريخ الإسلامي، بل كوثيقة تاريخية بحد ذاتها. إنه يمثل ذروة مرحلة معينة من الفكر الغربي حول الإسلام، ويجسد قوتها وضعفها في آن واحد. إنه عمل استفزازي بالمعنى الإيجابي للكلمة، فهو يدفعنا إلى إعادة التفكير في مسلماتنا، سواء كنا نتفق معه أو نختلف.

الكتاب يظل مدخلاً لا غنى عنه لفهم كيف نظر الاستشراق الكلاسيكي إلى الحضارة الإسلامية، وكيف بنى تصوراتها عنها. وبالنسبة للقارئ العربي والمسلم، فإن قراءته قراءة نقدية هي تمرين فكري ضروري، يساعد على فهم “صورة الذات في مرآة الآخر”، وتحديد نقاط القوة والضعف في **المناهج الغربية**، ومن ثم بناء خطاب أكثر نضجاً وأصالة حول تاريخنا وحضارتنا. لقد قدم لنا جرونيباوم، ربما دون قصد، تحدياً فكرياً لا يزال صداه يتردد حتى اليوم.